محاضرة: سقوط الأندلس

الأهداف

-أن يحدد مفهوم حروب الاسترداد وعلاقته بسقوط الأندلس

-أن يحلل مراحل سقوط الأندلس

-أن يناقش أسباب السقط من خلال الأحداث المدروسة.

-أن يحدد مفهوم محاكم التفتيش ودورها في إنهاء الوجود الإسلامي بالأندلس.

المقدمة:

حتى بعد انهيار الدولة الأموية وظهور ملوك الطوائف في الأندلس التي قسمت إلى 22 دويلة اتسمت غالباً بالضعف والتناحر فيما بينها، لم يكن سهلاً على الإسبان إنهاء الحكم الإسلامي في المنطقة، فقد استغرق سقوط الأندلس بالكامل ما يزيد عن أربعة قرون بدأت بانهيار طليطلة وانتهت بتسليم غرناطة التي صمدت وحيدة 10 أعوام أمام حملات الإسبان المتتالية. في هذه المحاضرة سنتناول مفهوم السقوط أو الاسترداد ومراحله التاريخية وسنناقش أسبابه ونتائجه.

1-المفهوم

سقوط الأندلس كما تطلق عليه المصادر الإسلامية أو **حروب الاسترداد** أو حروب الاستعادة (بالإسبانية: Reconquista) كما تُعرف في المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر التاريخية هي فترة في تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية، والتي تمتد ما يقرب من 770 عاما بين المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي لإسبانيا والبرتغال عام 710 وسقوط غرناطة، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث أدت إلى توسيع الممالك المسيحية في عام 1492.

ومع ذلك فإن العديد من المؤرخين الغرب والإسبان خصوصا شككوا في حقيقة مفهوم الاسترداد كمفهوم خلق لخدمة أهداف سياسية لاحقة، بل وقد اعتبرته مصادر متعددة مجرد "أسطورة". ومن أوائل المثقفين الإسبان للتشكيك في فكرة "الاستعادة" التي تستمر لمدة ثمانية قرون كان **خوسيه اورتيغا إي غاسيت** والذي كتب ذلك في النصف الأول من القرن العشرين، ومع ذلك فإن مصطلح لا يزال له استخدام واسع.

2-الأندلس المسلمة

استمر التواجد الإسلامي في الأندلس قرابة 800 عام، من عام 711م إلى 1492م، ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى جزأين: **الأول** امتد منذ بداية الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة العامرية وتميز بكونه عهداً ذهبياً استطاع فيه الأمويون الحفاظ على وحدة الأندلس أو تماسكها، أما **الجزء الثاني** فكان مع بداية نشوء ملوك الطوائف الذين حكموا دويلات متفرقة قرابة 22 دويلة أضعفها التناحر فيما بينها حتى سقطت جميعها بيد الإسبان. ضعف ملوك الطوائف كان سبباً في انهيار الحكم الإسلامي في الأندلس، ومع ذلك فقد كان انهياراً بطيئاً للغاية استمر 407 أعوام وبدأ بسقوط طليطلة.

3-مراحل سقوط الأندلس

تقليديا، يشير المؤرخون **لمعركة كوفادونجا** سنة 718 على أنها بداية لفترة الاسترداد، حيث قام جيش مسيحي صغير، بقيادة النبيل بيلاجيوس بهزيمة جيش الخلافة الأموية في جبال شمال أيبيريا، وفيها انهزم ابن علقمة اللخمي من قِبل قوات «بلايه» وأنشأت إمارة مسيحية في أستورياس. أي بعد 7 أعوام من الفتح الإسلامي للأندلس على يد طارق بن زياد، في ذلك الوقت كانت الأمور مستتبة في الأندلس التي أصبحت ولاية تابعة للخلافة الأموية، وكانت أنظار المسلمين متوجهة نحو استكمال الفتوحات والتوغل في أوروبا.

أ-معركة بلاط الشهداء

يمكن أن نؤرخ بهذه المعركة أيضا كمرحلة من المراحل التمهيدية للاسترداد؛ فمعركة بلاط الشهداء أو معركة تور أو معركة بواتييه هي معركة دارت في رمضان 114 هـ/ أكتوبر 732م في مكان يقع بين مدينتي بواتييه وتور الفرنسيتين، وكانت بين قوات مسلمين تحت لواء الدولة الأموية، بقيادة والي الأندلس **عبد الرحمن الغافقي** من جهة، وقوات الفرنجة والبورغنديين بقيادة **شارل مارتل** من جهة أخرى، وانتهت بانتصار قوات الفرنجة وانسحاب جيش المسلمين بعد مقتل قائده عبد الرحمن. وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا. وتوقف الفتح عند هذه النقطة خلق جبهة يمكن أن تطال النفوذ الإسلامي بالأندلس.

لم تهدأ المناوشات بين الإسبان والمسلمين بعد ذلك، واستطاع الإسبان الاستيلاء على بعض المناطق في فترات متفاوتة من الحكم الإسلامي، حيث كانت بداية السقوط مع **بامبلونا** بشمال البلاد عام 748 ميلادي، ثم **برشلونة** عام 985، ولم يمض 12 عاما حتى كانت مدينة **سنتياغو** قد سقطت عام 997 للميلاد، وتلتها مدينة **ليون** بعد خمسة أعوام.

ب-سقوط طليطلة

بعد أن هدأت ما تسمى "حروب الاسترداد" لحوالي ما يقرب من نصف قرن، استأنفت وسقطت مدينة سلمنقة عام 1055 للميلاد، وبعد تسعة أعوام تبعتها مدينة قلمرية عام 1064، وبعد توقف دام 19 عاما سقطت مدريد عام 1084 للميلاد. وتشكلت ممالك فرنجية في شمال إسبانيا المحررة مثل ممالك **مملكة قشتالة ومملكة أراجون ومملكة ليون ومملكة الباسك**.

من جهة أخرى قام صراع بين دولة **بني ذي النون** في طليطلة وبني هود **بسرقسطة**، ضمن ما عرف بصراع ملوك الطوائف؛ ولجأ الطرفان لطلب مساعدة ملوك إسبانيا المسيحيين. وكان هؤلاء يضربون المسلمين بعضهم ببعض، مقابل الحصول على مال أو قلاع أو أراضٍ أو مدن، واستمر النزاع بين طليطلة وسرقسطة من سنة 1043 إلى سنة 1046م.

بعد فترة صراعات داخل البيت القشتالي انتهى بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان الملك ألفونسو السادس، وبعد أن استتب له الأمر، فرض الحصار على طليطلة في سنة 1084م، ولم يقم من بين ملوك الطوائف إلا المتوكل ابن الأفطس الذي أرسل جيشا كبيرا لنجدة طليطلة، لكنه تعرض لهزيمة ساحقة، واستمر الحصار تسعة شهور، إلى أن استبد الجوع بالناس ولم تفلح محاولات المسلمين في الوصول لتسوية. ولم يرضَ الفونسو سوى بتسلم المدينة كاملة، وفعلا تم ذلك في 25 مايو 1085م، وتوجه إلى المسجد الكبير الذي كان كاتدرائية أولاً وحوله إلى كاتدرائية وصلى فيه قداس الشكر، وصارت العاصمة لمملكة قشتالة الفرنجية وتم استردادها، وتم منح المسلمين الحرية كاملة لمغادرة المدينة أو البقاء فيها وحرية التصرف في أملاكهم.

كان لطليطلة تحديداً أهمية بالغة لدى الإسبان، فقد كانت عاصمة القوط قبل دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، كما أنها متاخمة لحدود الممالك الإسبانية مما يجعل منها بوابة عبور باتجاه باقي دويلات ملوك الطوائف.

ج–سقوط قرطبة

كانت هزيمة الموحدين سنة 609هـ بالأندلس في معركة العقاب، إيذانا بانهيار الأندلس، وفي سنة (633هـ\1236م) وبعد حصار طال عدة شهور، وبعد استغاثة **بمحمد بن يوسف بن هود** الذي كان قد استقل بدولته جنوب وشرق الأندلس، لكنه كان منشغلا بحرب **محمد بن يوسف بن الأحمر**، الذي كان قد استقل أيضابجزء آخر من بلاد الأندلس، في كل هذه الظروف سقطت قرطبة في 23 من شهر شوال لسنة 633هـ ما يوافق 29 يونيو سنة 1236م.

د–دور المرابطين

من بعد طليطلة، وجَّه **ألفونسو** أنظاره نحو **إشبيلية** التي كان يحكمها **المعتمد بن عباد** آنذاك، وكانت واحدة من أقوى ممالك الأندلس؛ إذ ضمت قرمونة وولبة والجزيرة الخضراء إضافةً إلى قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية السابقة. ومع ذلك لم تمتلك إشبيلية من القوة ما يجعلها تصمد أمام جيوش ألفونسو، فما كان أمام ابن عباد من خيار سوى الاستعانة **بيوسف بن تاشفين**، أمير دولة المرابطين في المغرب.

ركب ابن تاشفين البحر مع جيشه وصولاً إلى الأندلس، واجتمع مع جيش الأندلسيين بقيادة ابن عباد لمواجهة ألفونسو السادس في **معركة الزلاقة** عام 1086. مُني الإسبان بهزيمة مدمرة في هذه المعركة، ويشار إليها إلى أنها المعركة التي أخَّرت خروج المسلمين من الأندلس أربعة قرون أخرى.

وبعد مرور بضعة أعوام على هذه المعركة، قرر المرابطون ضم **ملوك الطوائف** إلى ملكهم وكان من السهل على جيوشهم القوية اختراق دفاعات دويلات الأندلس الضعيفة، فاستولوا على غرناطة ثم على طائفة المرية عام 1090، وعلى إشبيلية عام 1091، وعلى طائفة بطليوس عام 1094 وعلى طائفة سرقسطة عام 1110.

هـ–ما بعد المرابطين

استمر حكم المرابطين في الأندلس فترة طويلة من الزمن، إلى أن انهار أخيراً على يد الموحدين عام 1147 الذين حكموا بدورهم حتى عام 1212 حيث تمت هزيمتهم من قِبل قوات ألفونسو الثامن في موقعة "العقاب". مع ذلك لم ينتهِ الوجود الإسلامي في الأندلس مع نهاية الموحدين، على الرغم من استمرار توسع الإسبان وإسقاطهم للمدن والحصون المسلمة واحدة تلو الأخرى. ولم يستطِع الإسبان من السيطرة على الأراضي الأندلسية بالكامل حتى عام 1492 حين سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس.

***سقوط إشبيلية**

بعد سقوط ولايات الأندلس الوسطى والشرقية، لم تتبقَّ سوى إشبيلية وغرناطة، وأصبح الجنوب ملاذ الفارين والمغلوبين على أمرهم، وبينما كان ما تبقى من أرض الأندلس غارقا في الحروب الداخلية والصراعات والدسائس، كان الشمال المسيحي ينظم صفوفه عبر توحيد مملكتَيْ "ليون" و"قشتالة" تحت راية الملك المتعصِّب **فيرناندو الثالث**، الذي بدأ بمراسلة ملك غرناطة **محمد بن الأحمر**، حتى انتهت المراسلات بتوقيع معاهدة نصَّت في أحد بنودها على أن يدفع بنو الأحمر جزية سنوية لملك قشتالة،

علاوة على التبعية العسكرية له في أي حروب قادمة يخوضها، وتسليم عدد من الحصون التي خضعت سابقا لسيادة جناح غرناطة.

وبموجب تلك المعاهدة، جنَّد فيرناندو الثالث جيش غرناطة المسلم لحصار مدينة إشبيلية، أعظم حواضر الأندلس بعد قرطبة، وآخر مدن المسلمين سقوطا قبل غرناطة، وقد لعب ملك غرناطة دورا سياسيا هو تثبيط هِمَمِ الحاميات الإسلامية، وإقناعها بتسليم المدن حقنا للدماء. ونتيجة للواقع على الأرض، وامتداد الحصار على إشبيلية 12 شهرا، استسلمت في الأخير بأيدي المسلمين ودخلها فيرناندو، وصارت بعدها عاصمة مُلكِه بدلا من طُلَيْطِلَة الإسلامية التي سقطت هي الأخرى قبلها.

***سقوط غرناطة**

وحين فرغ الشمال المسيحي من انتصاراته، بدأت آخر مرحلة من **حروب الاسترداد** بتجهيز حملات لإسقاط غرناطة. وقد استطاعت المدينة الصمود نحو عشر سنوات، حتى ضُرب عليها حصار طويل في أوائل عام 1491. وتتفق المصادر العربية والأجنبية على أن الجيش الإسباني استخدم المدفعية الثقيلة في حربه، ثم أحرق جنوده كل المزارع والمحاصيل خارج الأسوار. ويذكر المؤرخ "محمد عبد الله عنان" في موسوعته "دولة الإسلام في الأندلس" أن السكان المستضعفين لم يجدوا ما يأكلونه في رمضان، فذبحوا القطط والكلاب، وأكلوا الفئران.

وقد أشارت المصادر إلى أن الكثافة السكانية للمدينة التي جمعت شتات المسلمين بعد زوال مُلكهم، إلى جانب حصونها المنيعة وأسوارها العالية، مَكَّنتها من الصمود أمام ممالك الشمال المسيحية. لكن **ابن الأحمر** ثبَّط من عزيمة الجيش الذي أراد القتال، ودخل في مفاوضات سرية لتسليم المدينة دون قتال لفرديناندو الثالث وإيزابيلا، ملكَيْ أراجون وقشتالة، مقابل معاهدة احترام حرية المهزوم، لينتهي بسقوط غرناطة حكم إسلامي دام قرابة ثمانية قرون.

ولم تتوقف الكارثة عند غرناطة، إذ سرعان ما توجهت نحو بلدان شمال أفريقيا وسيطرت على مناطق عدة بينها مدينة مليلية المغربية عام 1492 في السنة التي سقطت فيها غرناطة، وقبلها سيطر البرتغاليون على سبتة المغربية عام 1415 مستغلين في ذلك انهيار قوة المغرب الأقصى.

وقد خلد الشاعر الشهير أبو البقاء الرندي سقوط الأندلس بقصيدته الشهيرة التي قالها فيها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان *** فلا يغر بطيب العيش إنسان

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ *** فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ

4-محاكم التفتيش:

هو مصطلح معرب من اللاتينية التي تعني: التحقيق في البدع الهرطوقية، وهو ديوان أو محكمة كاثوليكية نشطت خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مهمتها "حماية نقاء المعتقد ضد التعاليم الخاطئة". منها **محاكم التفتيش الإسبانية**، التي أسسها فرناندو الثاني وإيزابيلا الأولى في 1478 بموافقة البابا. ومهمتها الحفاظ على العقيدة الكاثوليكية في الممالك الإسبانية. أما الهدف من تلك المحاكم فهو في المقام الأول فرض العقيدة على أولئك الذين تحولوا من اليهودية والإسلام. إما بتحويل دينهم أو ترك إسبانيا.

نصَّت معاهدة تسليم غرناطة على ضمان ممارسة المسلمين لشعائرهم دون المساس بجوامعهم ومناراتهم، كما لم يُمنعوا من الصيام. لكن في عام 1499 أصدرت محكمة التفتيش مرسوما قضى بإغلاق المساجد كافة، مع تبني المملكة حملة تطهير عِرقي لتنصير الشعوب المغلوبة التي عاشت على غير دين الملك، لتُلغى بذلك رسميا كل الحقوق التي وقَّع عليها ابن الأحمر. كما منعت الأسماء العربية، وأجبرت محكمة التفتيش المسلمين على التخلي عن لغتهم وأزيائهم، ورغم اندلاع أول انتفاضة في غرناطة في رمضان عام 1499، لكن الكنيسة قابلتها بوحشية ونجحت في إخمادها.

مورست في هذه المحاكم معظم أنواع التعذيب المعروفة في العصور الوسطى، وأزهقت آلاف الأرواح تحت وطأة التعذيب. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية على النار، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك.

اختار عدد كبير من المسلمين التنصر للبقاء في البلاد فسُمُّوا "المسيحيين الموريين" (الموريسكيين)، وقيل إن تنصرهم كان سطحيا، وأخفوا الإسلام في قلوبهم خوفا من إرهاب محاكم التفتيش، واستمرت محاكم التفتيش حتى تم الغاؤها نهائيا سنة 1834م.

فيما خرج آلاف المسلمين واليهود من الأندلس باتجاه الشمال الأفريقي واستقروا بمدن عدة، فرارا من واحدة من أسوأ مجازر القتل والذبح والتعذيب في التاريخ، والتي ما تزال بعض متاحف إسبانيا تحتفظ بوسائل تنفيذها.

الخاتمة:

وتؤكد معظم المصادر أن أسباب سقوط الأندلس تعود إلى انخراط حكامها في حروب لا تنتهي بينها حفاظا على السلطة والجاه، وهي حروب ونزاعات أججها خصوم المسلمين، إلى جانب الانغماس في حياة الترف واللهو، والمبالغة في الإنفاق بدل الدفاع عن الأرض التي فتحها أسلافهم.

ويمكن أن نخلص في نهاية المحاضرة إلى النتائج الآتية:

-أن سقوط الأندلس مصطلح يقصد به حالة التراجع المتتالي نسبيا لحكم المسلمين في الأندلس.

-يمكن أن نلخص هذا السقوط في عدة محطات بدأت بتوقف الفتوحات الإسلامية بعد معركة بلاط الشهداء، ثم دخول الأندلس في عصر ملوك الطوائف ثم سقوط طليطلة ثم تجميد السقوط بفضل المرابطين الذين أوقفوا زحف الأسبان وعزلوا ملوك الطوائف ثم عودة الانهيار مع حكم الموحدين ثم سقوط غرناطة.

من العوامل التي أسهمت في سقوط غرناطة:

-عزلة غرناطة حيث بقيت في النهاية تحارب وحدها.

-استخدام الإسبان الفعال للمدفعية لإخضاع المدن التي طال حصارها.

-توحد الممالك الإسبانية فقد كانت الحرب على غرناطة مشروعاً مشتركاً بين إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة وليون وفرديناند الثاني ملك أراغون.

-تعتبر محاكم التفتيش واحدة من أسوأ مجازر القتل والذبح والتعذيب في التاريخ. حيث أجبر المسلمون على التنصر أو مغادرة الأندلس، بل تمت ملاحقتهم إلى شمال إفريقية.